- 9 -

فلنحسم هذه المسألة

يلقي فندق الرشيد الرهبة في النفوس لضخامته، وقد تم بناؤه من قبل «مجموعة أوبيروي» الهندية، في ثمانينيات القرن المنصرم، قبل أن يبدد صدام ثروة البلاد على التسلح؛ بغية هزيمة إيران، ويتعرض العراق للنبذ، على الصعيد الدولي، في أعقاب غزوه الكويت. أثثت غرف الفندق الأربع مئة والثماني والعشرون، حين تم افتتاحه، بما هو وثير من المقاعد والسجاد، وأحدث أجهزة التلفزة، والهواتف، ناهيك عن أرضية حماماتها الرخامية. قدمت حانة شهرزاد في الأسفل، علاوة على ذلك، ما هو فاخر من الكحول، ناهيك عن صالة ديسكو ألف ليلة وليلة، التي كانت تعج بالحسان، والمتاجر الحاوية أفخر أنواع العطور الفرنسية، والعيادة الطبية القائمة على رعاية النزلاء، بواسطة أطبائها الأوروبيين.

أرغمت مجموعة أوبيروي على مغادرة البلاد، بعد حرب الكويت، جراء عقوبات الأمم المتحدة. تسلمت حكومة صدام إدارة الرشيد -من ثمّ- ناهيك عن الفنادق الأجنبية الأخرى في البلاد كافة، بما يشمل شيراتون عشتار والميريديان، الذي سمي فندق فلسطين. أوقفت وزارة المالية المعدمة أعمال الصيانة في الرشيد، توفيراً لما تحتاجه من نفقات. لم يثر ذلك انتباه أحد، طيلة بضع سنوات، حتى أخذت المصاعد تتعطل، ناهيك عما أصاب الفرش من بلاء، والمراحيض من تصدع. وقفت على ما حَلَّ بالفندق من إهمال، حين نزلت فيه للمرة الأولى في العام 2002، وقد اضطررت إلى رشوة عامل التنظيفات؛ بغية الحصول على لفافة من مناديل المرحاض الورقية. توقفت معظم الهواتف عن العمل، بينما عرضت أجهزة التلفزة ست محطات، لا أكثر، مما يخضع لرقابة الحكومة. لم يسمح نظام صدام بعرض محطتي السي إن إن والبي بي سي في الفندق، وقد تملكني الشك، وصحبي من النزلاء، من وضع شرطته السرية أجهزة تنصت في أجهزة تلفزتنا.

طالب البنتاغون -قبل أسبوع من الحرب- محطات الأخبار الأمريكية بإخلاء فندق الرشيد، لوقوعه على لائحة الأهداف المحتملة، جراء وجود ملجأ كبير أسفله. لم يحظَ الأمريكيون -بكل الأحوال، بالرغم مما أصاب المبنى من إهمال- بما هو أفضل من أماكن للإقامة.

انتقلت الدفعة الأولى من المدنيين الأمريكيين - جاي غارنر، وأعضاء مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية - إلى القصر الجمهوري، عوضاً عن فندق الرشيد، المؤلف من أربعة عشر طابقاً، بما يعلو المباني المجاورة، جراء تعرضه للهجمات، بحسب خبراء المكتب الأمنيين. تغيرت التقويمات الأمنية، بكل الأحوال، مع اكتظاظ القصر بساكنيه: بات الفندق آمناً بما يكفي، في نظر ضباط الأمن التابعين لسلطة الائتلاف المؤقتة، لإيواء المئات من الموظفين، الذين كانوا ينامون على الأسرة المتنقلة في القصر، بانتظار ما يفترض أن تحضره هاليبرتون من مقطورات إلى بغداد.

أوكلت مهمة إدارة الرشيد إلى شركة هاليبرتون، التي عمدت إلى إعادة استخدام العشرات من موظفيه السابقين، بما يشمل عدداً ممن اشتبهت بانتمائهم إلى الاستخبارات العراقية. لم تبذل الشركة كثيراً من الجهد لتأهيل الغرف، بالرغم من مسارعتها إلى إعادة افتتاح صالة الديسكو، وإقامة حانة في ملجأ القبو، لتجعل من الفندق -من ثمّ- مقر الاحتفال الرئيس في مدينة الزمرد.

تثاءب العقيد إلياس نمر، قبل أن يتقلب في فراشه. استيقظ منذ عشر دقائق، عند السادسة صباحاً، بينما اخترق أول أشعة الشمس الأفق، محيلاً عتمة السماء إلى الزرقة. لم يكلف نفسه عناء إنزال الستائر قبل الخلود إلى النوم، وقد اعتاد الاستيقاظ مع بزوغ الشمس، طيلة ما يقارب ثلاثة العقود التي أمضاها في الخدمة العسكرية.

تمكن الرجل من مشاهدة الطريق السريعة المؤلفة من ثمانية مجازات، عبر نافذته المطلة غرباً، في الغرفة 916، علاوة على حديقة حيوانات المدينة، وأحد المنتزهات المجاورة، وامتدادات قاحلة، بما تحويه من أشجار ذاوية، ومبانٍ متداعية. وُضِع، نحو الجهة اليسرى، أبرز ما شيده صدام من نصب تذكارية لتخليد ذكرى الحرب

مـع إيران، وساحة للاستعراضات العسكريـة، يتخللها قوسان عملاقان بمظهر يدين - على هيئة يدي صدام - تقبضان على سيفين متقاطعين.

فكـر نمر قائلاً لنفسه: «يتعين علي النهوض». لم يكن ملزماً بالتوجه إلى القصر الجمهوري، في صبيحة ذلك اليوم، الأحد، قبل الحادية عشرة. ارتأى ممارسة المشي قبـل البدء في عمله. كان المسؤول الأبرز عـن الميزانية ضمن فريق سلطة الائتلاف المؤقتة، العامل مع وزارة الصحة العراقية. اتسمت وظيفة نمر -لبناني المولد، حامل الجنسية الأمريكية، الذي يتحدث العربية- بكثير من التعقيد، ليمتلك ما هو واسع من الخبـرة. تولى الرجل، في السابق، المسؤوليـة عن ميزانية مركز والتر ريد العسكري الطبي في واشنطن، بعد إدارة ميزانية مركز البحث الطبي الأبرز في الجيش، فورت ديتريك، المقدرة بمليار دولار.

اتسم نمر بالبدانة، ناهيك عن عرض فكيه، ومظهر أنفه المدبب، وسمرة بشرته، ومـا يغـزو شعره من شيب. تثاءب الرجـل مجدداً، قبل التفكير فـي الخلود إلى النوم ثانية، ليحسم أمره بالنهوض، في نهاية المطاف، على وقع أحد الانفجارات الضخمة التي هزت الفندق.

فكر نمر، في تلك اللحظة، قائلاً لنفسه: «يا إلهي، قد فعلوها أخيراً».

استلقى الرجل على الأرض بدافع من غريزته، قبل أن يفكر قائلا لنفسه: «لم يكتفِ أحد فـي السابق بإطلاق صاروخ واحـد. سيطلقون المزيد بلا ريـب». مثل الاستلقاء علـى الأرضـ أكثر الوضعيات أمنـاً، في حينه، مع الابتعاد قدر الإمـكان عن النافذة. عجـز نمر عن الحلول أسفل أي من سريري الغرفة، جراء ضخامة حجمه، ليعمد إلى التخندق في الحيز الفاصل بينهما، مستلقياً على بطنه.

وقعـت الحادثـة فـي السادس والعشريـن من تشريـن الأول/ أكتوبـر 2003، بعد ستـة أشهر ونصف من دخول القوات الأمريكية بغـداد. استهدف المتمردون الرشيد بصواريخهـم، قبـل شهر من الزمن، ليفتقـر الهجوم إلى الفاعلية بـكل الأحوال. تم إطـلاق القذائـف من منصة متحركـة، في حي سكنـي، شمال المنطقـة الخضراء.

أصابت إحداها الطابق العلوي، دون أن تسبب كثيراً من الأضرار، بينما سقطت أخرى في إحدى الحدائق، وضربت ثالثة منزلاً قرب موقع الإطلاق. لم تمثل واجهة الفندق الشمالية الضيقة، أو الجنوبية المحاذية للمنطقة الخضراء، مصدراً للقلق، على النقيض من الشرقية والغربية، الهشتين من الناحية الأمنية، جراء طولهما، وامتلائهما بالنوافذ.

استبعد خبراء السلطة الأمنيين وقوع هجمات جدية على الرشيد، بالنظر إلى فرضيتهم المتمثلة في افتقار المتمردين إلى المهارات أو التجهيزات الكافية لإصابته بدقة عالية. فَتَّ الحادث، بكل الأحوال، في عضد نزلاء الفندق.

ازدادت وتيرة الهجمات بواسطة القناصة، والعبوات المزروعة على جوانب الطرق، بمرور الوقت، خارج المنطقة الخضراء. دمرت السيارات المفخخة السفارة الأردنية ومقر الأمم المتحدة، لتقتل رئيس بعثتها، الدبلوماسي البرازيلي سيرجيو دي ميللو. تناهى إلى أسماع ضباط الاستخبارات معلومات عن مؤامرات لاختطاف أجانب. افترض بمدينة الزمرد، بكل الأحوال، أن تكون آمنة، بالنظر إلى ارتفاع أسوارها البالغ سبعة عشر قدماً، وما تحويه من نقاط للتفتيش.

ضرب صاروخ ثانٍ حاجزاً إسمنتياً خارج نافذة نمر، بعد عشرين ثانية من الهجوم الأول، ليحطم زجاجها، ويملأ الغرفة بالركام.

أخذ نمر بالصلاة، في تلك اللحظة، قائلاً: «أرجوك ربي، إنه هذا الأمر».

اتخذ الصاروخ الثالث مسار سلفه، وإن شق عنان السماء بزاوية تعلوه قليلاً. كان الأخير، كما سابقيه، من طراز كاتيوشا 85 ملم، روسي الصنع. لربما بيع إلى العراق، على الأرجح، في ثمانينيات القرن المنصرم؛ بغية استخدامه ضد إيران. تعرض الآلاف من تلك الصواريخ للنهب، من مستودعات الأسلحة، في أعقاب الحرب.

تبلغ سرعة صواريخ الكاتيوشا ثلاثة أضعاف سرعة الصوت. إن وقفت بجانب أحدها عند إطلاقه، فستجد أن صوتها يشبه صرخة مرتفعة في الصور، ولن تسمع شيئاً، حين تكون في موقع هبوطها، حتى تضرب أهدافها.

حلـق الصـاروخ الثالث عبر نافذة الغرفة 916 المحطمـة، ليضرب الجدار الواقع إلـى الجهـة اليمنى من موقع نمر. رأى الرجل وميضاً قويـاً ينبعث من رأس الصاروخ الحربـي الفوسفوري، وكأن أحدهـم قد أضاء آلة تصوير في وجهـه. شعر نمر، فيما بعـد، بهبة قوية من الهواء المضغوط الناتج عن الانفجار. اخترقت جسد الرجل، كما رصاصـات «الخردق» الصغيرة، كسرات محترقة من الصواريخ، وقطع من الجدران، وشظايا من العوارض الحديدية وزجاج المصابيح. حَطّ الركام المنبعث من الانفجار على رأسه، وظهره، وساقيه، ناهيك عما سببه من حروق في جسده.

صرخ نمر، في حينه، وقد ظن أنه سيلقى حتفه.

حـاول الرجـل التكلم، بينمـا كان يلتقـط أنفاسه. صـرخ بصوت مبحـوح قائلا: «النجدة، أحتاج العون هنا».

أخـذ الحطـام المحترق «يطقطـق» حوله، بينمـا أومضت الأسـلاك الكهربائية. غصـت الغرفة بالدخان، ورائحـة مادة الكورديت المتفجرة الحـادة. تمكن نمر من سماع صوت صراخ بعيد.

اهتز الفندق على وقع انفجار صاروخ آخر، قبل أن يعم السكون.

تحـدث الرجل، بلهجة أقرب إلى العويل، قائلاً: «هل يوجد أحد هنا؟، فليساعدني أحدكم رجاء».

لم يلبِ أحد نداءه.

فكـر نمر، فـي تلك اللحظة، قائلاً لنفسـه: «يفضل ألا أصرخ مجـدداً. أحتاج إلى توفير طاقتي».

حاول الرجل الزحف، ليدفن نفسه في الركام بصورة أكبر.

فكـر مجدداً، فيما بعـد، قائلاً لنفسه: «أعلـم أنهم سيأتون لنجدتـي. يتعين علي الحفاظ على قواي».

ضـرب صاروخ آخـر الفندق، ليعقبه آخر. تمكن نمر مـن احتساب سبعة صواريخ إضافية، أعقبت إصابة غرفته.

لم يدرِ الرجل، في حينه، أن الصاروخ الذي حلق عبر نافذته لم ينفجر في غرفته. لو حدث ذلك بالفعل، فلمَا بقي على قيد الحياة ليصرخ. اخترق الصاروخ الجدار، قبل أن ينفجر في الحمام. تحرر قسط كبير من قوة الانفجار بعيداً عنه، ليدمر الخزانة، والباب الأمامي، والرواق.

شغل أحد زملاء نمر في فريق وزارة الصحة، المقدم تشارلز فيشر، الغرفة 915، الواقعة عبر الردهة. بلغت قوة الانفجار من الشدة ما ألقى به على الأرض. تمكن فيشر، في المدة الفاصلة بين الانفجارات، من سماع عويل نمر، الذي أخذ يخفت، طلباً للنجدة. فكر فيشر، في حينه، قائلاً لنفسه: «تباً، لقد أصيب بشدة».

صرخ الأخير قائلاً: «إلياس، سآتي لنجدتك».

لم يلقَ الرجل رداً.

التقط فيشر بندقيته، وحقيبة ظهره، التي تحوي عدة طبية، قبل أن يبدأ في الحفر عبر الحطام الذي يحجب بابه. امتلك نمر كثيراً من الحظ. لم يكن فيشر طبيباً عادياً، بل المدير السابق للعناية الحرجة في عيادة كليفلاند، علاوة على انتمائه لنخبة القوات الخاصة في الجيش.

اصطدم فيشر، حين بلغ الرواق، بحائط من الركام يحجب باب نمر. عمل الرجل على أبعاد ما أمكنه منه جانباً، قبل أن يصادف -عند دخوله الغرفة 916- شريطاً كهربائياً متدلياً من السقف، يومض بشدة. زحف فيشر أسفل الشريط، ليبدأ الحفر باتجاه نمر.

ظن فيشر للوهلة الأولى أن نمراً قد لقي حتفه. غطى الركام قسماً كبيراً من جسد الأخير. تخضب قميصه الأبيض بالدماء، ناهيك عن سقوط قطعة كبيرة من الخشب على رأسه.

أخذ نمر بالعويل مجدداً، بينما عمل فيشر على إزالة الركام.

همس نمر لفيشر قائلاً: «لا أستطيع الحراك. أشعر بالخدر من وسطي حتى أسفل جسدي».

صرخ اثنان من المتعهدين الأمنيين، المنتمين إلى جنوب إفريقية، في أثناء وجودهما في الرواق، قائلين: «هل يوجد أحد في الغرفة؟».

سألهما فيشر إزالة الركام بما يكفي لنقل نمر، قبل العمل على حمله إلى الردهة. عمد الثلاثة إلى تغطية الرجل ببطانية، والنزول به تسع مجموعات من السلالم، حيث كان يصرخ من هول الألم مع كل ارتطام ينتج عن حركتهم.

غصت ردهة الرشيد بالمذعورين، الهائمين على وجوههم من موظفي السلطة. أمضى بول وولفويتز وغيره من مسؤولي البنتاغون ليلتهم في الفندق. تجمعوا في إحدى الزوايا، محاطين بالحرس، وقد تهندم وولفويتز بما يفوقهم أناقة -مرتدياً سروالاً عريضاً، وقميصاً أزرق اللون- وإن كان أشعث الشعر، يكسو الشحوب وجهه.

تفرق الحشد، بينما حمل المسعفون نمراً إلى الردهة، ومددوه على الأرضية الرخامية. أدخل أحد الأطباء أنبوباً للسوائل في وريد نمر، وعمل فيشر على فحص صديقه بصورة أشمل. لم تبدُ الحال جيدة. لم يشتبه الرجل في تضرر دماغ نمر وجمجمته فحسب، بل معدته وحبله الشوكي كذلك.

قدمت عربة إسعاف، من طراز همفي، لنقل نمر عبر المسافة القصيرة المؤدية إلى مستشفى المنطقة الخضراء، ليرافقه فيشر في مؤخرها. نزع نمر الصليب عن عنقه، في منتصف الطريق، قبل أن يضعه في يد فيشر.

خاطب نمر الأخير، بذلك الصدد، قائلاً: «لا أظن أنني سأنجو. أعطِه زوجي من فضلك. قد ورثته عن عائلتي».

وضع نمر على نقالة متحركة، عند بلوغه المستشفى، قبل أن ينقل إلى قسم الطوارئ. صرخ فيشر، في حينه، قائلاً: «حالته طارئة. انقلوه هناك».

اشتبه أحد الموظفين مخطئاً - حين ذهب فيشر؛ بحثاً عن كبير جراحي الأعصاب - في أن نمراً كان أحد سجناء الحرب العراقيين، ليعمد إلى نقله إلى مكان لاحتجاز العراقيين المصابين بنيران القوات الأمريكية.

صرخ نمر في الموظف قائلاً: «لا تفهم الوضع. أنا عقيد في الجيش الأمريكي. لا أنتمي إلى أولئك الناس».

فقد الرجل وعيه فيما بعد.

أخرج الجراحون كثيراً من الشظايا من ساقي نمر وظهره، ناهيك عما استخلصوه من الكسرات المعدنية، التي سببت شللاً مؤقتاً، من عموده الفقري. اكتشف الجراحون، علاوة على ذلك، تمزق طبلة أذنه اليسرى، بعد قيامهم بفحصها، وقد عمدوا إلى معالجة حروق وجهه الناتجة عما لم يستهلك من وقود الصاروخ.

نقل الرجل، بعد خمس عشرة ساعة، إلى مستشفى عسكري في ألمانية، قبل أن ينتهي به المطاف في مركز والتر ريد. خضع نمر، فيما بعد، لعشر عمليات إضافية، وقد كان يشعر بشديد العذاب، والألم، والإحباط، في بعض الأحيان، ليستعيد عافيته في نهاية المطاف، على النقيض من مدينة الزمرد.

وقف الجنرال مارتن ديمبسي، قبل الهجوم بخمس عشرة ساعة، في منتصف جسر الرابع عشر من تموز، ليعلن «أن الأمن والسلامة قد تحققا» في بغداد. عمد الجنرال وثلاثة من أعضاء مجلس المدينة -بينما عزفت فرقة عسكرية أمريكية النشيد الوطني العراقي- إلى قص شريط أزرق، معلق عند مدخل الجسر.

صرخ أحد أفراد الشرطة العراقية قائلاً: «تقدموا، الطريق مفتوح»، ليجتاز المدخل المئات من الأطفال والبالغين، وهم يهللون ويصفقون.

امتد الجسر -الذي استمد اسمه من ثورة الرابع عشر من تموز/ يوليو 1958، التي أطاحت بالملكية المدعومة من قبل بريطانية- فوق نهر دجلة، عند الجهة الجنوبية الغربية للقصر الجمهوري، ليؤدي إلى طريق سريعة مؤلفة من ثمانية

مجـازات، تمتـد إلى الغرب مـن فندق الرشيد، قبـل الاتصال بالطريـق العام نحو الموصل شمالاً. أغلق الجسر والطريق السريع، اللذان يشطران المنطقة الخضراء، منذ دخول الأمريكيين بغداد.

وافـق فريق «قوة الحماية» -المسؤول عن تأمين مدينة الزمرد، على مضض، بكل الأحـوال، عنـد حلول فصل الخريف- علـى إعادة افتتاح الجسـر والطريق السريعة. عمـد الجيش الأمريكي إلى إقامة جدار من الصلـب، بارتفاع سبعة عشر قدماً، حول المنطقـة الخضـراء، للتقليـل من فرص إصابة القصر مـن فوق الجسـر. أحاطت الجـدران الصلبة، عـلاوة على ذلك، الطريق السريعة، لتشـكل نفقاً فوق أرضي عبر أمريكـة المصغـرة. عمل الأمريكيون على اجتياز الطريـق السريعة عبر طريق سفلي بالقرب من فندق الرشيد.

اشتكـى الساسة العراقيـون مما يسببه الإغلاق من ازدحام مـروري، على امتداد أميـال، على الطـرق والجسور الأخرى. أبقـت سلطة الائتلاف المؤقتـة على قناعتها بـأن الأمن آخذ فـي التحسن، بالرغم من تزايـد هجمات المتمردين فـي العاصمة. أشـار موظفو السلطة، حين أبدى مسؤولو قوة الحماية اعتراضهم، إلى افتتاح حديقة حيوانات المدينة، والمنتزه المجاور - على الجهة الأخرى من الطريق السريعة، التي تقابل فندق الرشيد - منذ شهر مضى، دون وقوع أي من الحوادث.

مضـت شاحنة نقل بيضاء، فـي الخامسة والنصف من صبـاح اليوم الثاني، تجر مقطـورة محملـة بما بدا مولـداً كهربائيـاً أزرق اللون، عبر الطريـق السريع، قبل أن تتجـه إلى المنتزه الواقع مقابل فندق الرشيد. توقف السائق في فسحة خالية، تواجه الفنـدق بصورة مباشـرة، ليعمد، برفقة شريكـه -كما هو محتمل- إلـى فتح جانبي المولـد المفترض. احتـوى الأخير علـى أربعين مـن الصواريخ الموصولـة بطريقة بسيطـة، حيـث كان نصفها فرنسي الصنع، ونصفها الآخـر روسيًّا. عمد المهاجمان إلى تمويه القاذف، وتشغيل مؤقت التفجير.

أخبـر ديمبسـي وولفويتز، فيما بعـد، أن الهجـوم أماط اللثام عـن ضعف القوى المعارضـة للاحتـلال الأمريكـي. لم يجسد القاذف سـوى أداة بدائيـة الصنع، ولم

يقتل من نزلاء الفندق سوى خبير في العمليات السيكولوجية ضمن فريق الاتصالات الإستراتيجية. تضرر الفندق، جراء الهجوم، دون أن يصيبه كثير من الدمار.

توصل العديد في المنطقة الخضراء إلى ما هو مناقض من الاستنتاجات. كشف الهجوم النقاب، في نظرهم، عن أن مدينة الزمرد لم تعد واحة آمنة. تمكن المتمردون من ضرب مركز القوة الأمريكية في العراق، ناهيك عن قتل أحد موظفي سلطة الائتلاف المؤقتة. أقر ديمبسي وجنرالات آخرون، في نهاية المطاف، أن أشهراً من المراقبة والتخطيط، على الأرجح، قد سبقت تنفيذ الهجوم.

أثرت مناظر الأمريكيين المصابين، الممدين في ردهة الفندق، بشدة في عديد من موظفي السلطة. لم يسبق لهم اختبار الآثار الناتجة عن حربهم، وقد هرع بعضهم إلى الخارج؛ كي يتقيَّؤُوا.

أغلق الجسر والطريق السريع مجدداً أمام حركة العراقيين، ليقرر الضباط الأمنيون، المتخوفون من شن هجمات مماثلة، إغلاق الفندق على حد سواء. أضرت الصواريخ بنظامي التمديدات الصحية والكهرباء بكل الأحوال. اكتست بعض الطوابق بما يرتفع قدماً من المياه، ناهيك عما أصابها من حرائق صغيرة.

لم يملك نزلاء الفندق خياراً سوى الانتقال إلى القصر مجدداً، ليضطر بعضهم إلى النوم في مكاتبهم. لم يعمل الجيش وهاليبرتون على تنصيب أسرة متنقلة في قاعة الرقص الضخمة والأروقة فحسب، بل الخزائن أيضاً. بدا القصر، في الواقع، يماثل ميتماً كبيراً. انخفضت معنويات موظفي السلطة، الذين كانوا يشكون في الأصل من اضطرارهم إلى مشاركة الغرف في الفندق، بينما أرغموا على النوم مع المئات من زملائهم، ناهيك عن الاصطفاف أمام المراحيض المتنقلة.

تمثلت الميزة الوحيدة في شعور الناس بمزيد من الأمن. وقع القصر على مسافة بعيدة، داخل المنطقة الخضراء، بحيث عجز المتمردون عن إصابته على نحوٍ مباشر، ناهيك عما وفرته الجدران –التي تعادل قدماً في سماكتها، كما بدت الحال عليه– من حماية ضد هجمات الصواريخ المستقبلية. قصف المتمردون مدينة الزمرد، بكل

الأحـوال، بعدد من قذائف الهاون، عقـب يومين من هجوم الرشيد. حدث الأمر ذاته فـي اليوم الثاني، ناهيك عن العديد مـن الأوقات اللاحقة، دون أن تصيب الهجمات، فـي معظم الأحيـان، ما يتمتع بالأهمية من الأهداف. اكتفـى المتمردون -عوضاً عن إطلاق قذائف متتابعة لتحسين الدقة- بنصب مدافع الهاون عبر دجلة، وإطلاق عدد مـن القذائف سريعاً، قبل الفرار على عجـل. أمكن للرادارات الأمريكية تحديد موقع الإطلاق في ثوانٍ، ولكن الجيش لم يكن يرد بصورة تلقائية؛ مخافة انطلاق الهجمات من مناطق سكنية، وعدم الرغبة، على سبيل المثال، بضرب أحد الأسواق المزدحمة بقذائف المدفعية.

أسهـم رمي الفقاعة بعـدد من قذائف الهاون، بغض النظـر عن عجز المتمردين عـن إصابة ما يذكر من الأهداف، في إثارة القلق بين سكان مدينة الزمرد. لم تسلم الأماكن كافة من المخاطر.

دوت مكبرات الصوت في القصر، كلما وقع هجوم بقذائف الهاون، مطالبة ساكنيه بالاحتمـاء. اعتاد الموظفـون دعوة التحذير «بالصوت العمـلاق»، وقد كان يأتي على الـدوام متأخراً بمقدار دقيقة أو اثنتين. كانت الصواريخ تسقط بالفعل، كما المعتاد، بحلـول الوقت الذي تتـردد فيه أصداء التحذير عبر الأروقـة الرخامية. تقيد الجميع بالتعليمـات، عند وقوع الهجمات، بكل الأحوال، مرتديـن ستراتهم الواقية وخوذهم، راكضين باتجاه ملجأ القبو.

أخـذ انطـلاق الصوت العملاق يومياً، علـى وجه التقريب، يثيـر أعصاب ساكني القصـر. عجـز العديد من الموظفيـن عن النوم، بينمـا التجأ آخـرون إلى التدخين والشـرب، ناهيـك عن زيادة عدد زائري عيادة معالجة التوتـر الناتج عن القتال. بدأ بعض موظفي السلطة، علاوة على ذلك، في تعاطي المهدئات ومضادات الاكتئاب.

لم يقتصر الأمر على شعورهم بالخوف. أسهم الهجوم على فندق الرشيد -علاوة علـى مـا استهدف المنطقة الخضراء مـن صليات قذائف الهاون- فـي تبديد الوهم الشائـع داخل مدينة الزمرد بحلول الأمن في العراق. عملت سلطة الائتلاف المؤقتة،

منـذ بواكير الاحتلال، على ضوء الفرضية المتمثلة في تحـول العراق إلى واحة غناء لتعزيز الديموقراطية والسوق الحـرة. افترضت إستراتيجية بيتر مكفرسون للتطوير الاقتصـادي تمتع البلد بما يكفي من الأمن لتشجيع الشركات متعددة الجنسيات على إقامـة المصانـع. افترضت إستراتيجية جون أغريستو، عـن التعليم العالي، امتلاكه القدرة، وفريقه، على السفر إلى كل من جامعات البلاد. افترضت إستراتيجية جيري بريمـر السياسيـة امتلاك المتخصصين فـي شؤون الحكم القدرة علـى التنقل عبر البـلاد لتشجيـع الديمقراطية. تجاهـل مسؤولو السلطة، علاوة علـى ذلك، التقارير المتعلقـة بهجمات المتمردين، مفترضين أن ما يحدث من أمـور سيئة يقتصر على الفلوجة، والرمادي، وتكريت – أو ما يعرف بالمثلث السني.

جسدت الهجمات على المنطقة الخضراء أول ما أصاب الدرع الدفاعية من خروق. خاطبنـي أحـد الأصدقاء، من موظفـي السلطة، بذلـك الصدد، قائـلاً: «مثلت تلك الهجمات نداء استيقاظ عنيف. أدركنا، بصورة مفاجئة، أن الوضع الأمني يخالف ما دُفعنـا إلى تصديقه، وقد بدأ النـاس يطرحون السؤال الآتي على أنفسهم: «إن ساءت الأمـور، ولم تتحسن، فكيف سيكـون بمقدورنا القيام بكل تلـك الأشياء الطموح التي نأمل في إنجازها؟». مثل ذلك ما أثار خوف الناس حقيقة».

أخذت تقاريـر سلطة الائتلاف الأمنية اليومية طابعـاً تحذيرياً، ليطالب كل منها النـاس بالتنبه إلـى السيارات المشبوهـة، والشارات المزيفـة، والمفخخات. توقفت الرحـلات القليلة، خارج الفقاعة؛ بغية التسوق، أو تنـاول طعام العشاء في المطاعم الفاخرة، وبدأ موظفو السلطة في حمل السلاح داخل المنطقة الخضراء.

ما انفكت الإشاعات تدور عن التحضير لهجمات أخرى، تشن بواسطة السيارات المفخخـة، لا الصواريـخ أو قذائـف الهاون، وأمـواج من المتمردين الساعين إلى اقتحـام القصر. تمثل إحداها في ازدياد عـدد العراقيين داخل المنطقة الخضراء بمعـدل المئات يومياً، مما يشكل إشارة واضحة على اختراق جموع الأشرار الفقاعة الآمنة، كما هو مفترض.

بـدأ الأمريكيـون يشككـون فـي ولاءات العاملين لديهم مـن المترجميـن وأفراد السكرتاريـة العراقيين. قدر أحد التقويمات الداخليـة وقوع 60% منهم ضمن دائرة الشبهـات. تمثلت المشكلة في جهـل الأمريكيين هوياتهم. اعتقـد الأخيرون بخضوع عائلات مـن يدعي الولاء من العراقيين إلى تهديـد المتمردين، الراغبين في معرفة وجهـة الأمريكيين عند مغادرة المنطقة الخضراء. لم يمتلك العراقيون الثقة بحماية سلطة الائتلاف لهم، حال إبلاغهم بتلك التهديدات. اعتقد ضباط السلطة الأمنيون، عـلاوة على ذلـك، أن العراقيين يقدمون للمتمردين، في أكثـر الأحيان، ما يلتمسونه من معلومات.

أخـذ فريـق قوة الحماية في وضـع لافتات، في أرجاء القصر كافـة، تحذر الناس مـن ترك مـواد حساسة فيما يمكن للعراقيين رؤيته من أماكن. تم العمل على تهميش العراقييـن، عوضـاً عـن إشراكهـم بصـورة إضافيـة فـي عمليات سلطـة الائتلاف المؤقتة.

خاطبنـي أحد الأصدقـاء، من موظفي السلطـة، بذلك الصدد، قائـلاً: «لم يكن بمقـدورك إشراك زملائـك العراقيين في أي من الأمور. لم يكـن بمقدورك مغادرة المنطقـة الخضـراء. لم يكن بمقـدورك البقاء فـي الرشيد. شعرنـا وكأننا نتعرض للحصار». توقف الرجل برهة، قبل أن يردف قائلاً: «لا يمكنك إدارة بلد بتلك الطريقة. يمكن أن تخلق الوهم بأنك تدير الأمور، ولكن لا يمكنك القيام بذلك فعلياً».

المنطقة الخضراء، المشهد السابع

تجمع العشرات من موظفي سلطة الائتلاف المؤقتة في إحدى ليالي الأربعاء عليلة النسيم، من شهر أيار/ مايو، قبل ستة أسابيع من تسليم السيادة إلى العراقيين- حول بركة سباحة القصر، في حفلة وداع أخرى. رغب جيري بريمر في عودة موظفيه إلى الديار في مجموعات صغيرة؛ كيلا يعتقد الناس أن الأمريكيين يغادرون العراق بصورة جماعية. سعى الطامحون إلى البقاء ما أمكنهم، بينما افتقر الآخرون إلى الصبر إلى بلوغ المطار. رغب الجميع، بكل الأحوال، في احتساء المشروبات، للمرة الأخيرة، مع صحبهم. أقيمت الحفلات الوداعية في كل من ليالي شهري أيار/ مايو، وحزيران/ يونيو - عند بركة السباحة، في فندق الرشيد، والمطعمين الصينيين.

اتسمت تلك الليلة بالهدوء، بلا هدير قذائف الهاون، أو تحذيرات الصوت العملاق بضرورة الاحتماء.

سُمعت فيما بعد، بكل الأحوال، أصوات أعيرة نارية بعيدة. عمل أليكس ديغان، موظف وزارة الخارجية المشارك في الحفلة، على التقليل من شأنها، كما زملاؤه، بعدّها إحدى المعارك الاعتيادية بين الجنود والمتمردين.

أخذت الأصوات تشتد، مع ذلك، وتزداد حدة، قادمة من الاتجاهات كافة، كما بدت الحال عليه، ناهيك عن انطلاق القذائف التي تخلف وراءها آثاراً برتقالية من الدخان في السماء، على هيئة أقواس. ترددت، علاوة على ذلك، أصداء أعيرة البنادق الآلية، من طراز «إي كي 47»، عبر نهر دجلة.

بدأ الذعر يتملك ديغان. فكر الرجل، في تلك اللحظة، قائلاً لنفسه: «ها هو ذا قد وقع، الهجوم الشامل. سيزحفون عبر الأسوار».

هرع ديغان، برفقة المحتفلين جميعاً حول البركة، إلى الداخل. ركض بعضهم باتجاه ملجأ القبو، بينما انسحب آخرون إلى مكاتبهم، مبتعدين عن نوافذها. بدأ

أولئـك في التساؤل عما إذا كان يتعين عليهم المغـادرة بواسطة طائرة مروحية، كما أواخر الموظفين في السفارة الأمريكية في سايغون.

استمـع جميعهـم إلى الأخبار بعد مضـي ساعات: هزم العـراق السعودية، بثلاثة أهـداف مقابل هدف واحد، في مباراة لكرة القدم، ليتأهل إلى نهائيات دورة الألعاب الأولمبية المقامة في أثينا ذلك الصيف.

كانت بغداد تحتفل.